لم يظهر محمود في الأسابيع والشهور التالية. ظهر في العيد. صار يأتي في الأعياد، يحمل لي دائما هدية ما. يقول: «أمي صنعت لنا هذه الفطيرة»، «عمتي جاءت من البلد وأحضرت لنا هذا التمر، إنه من نخلة جدي»، «هل تحب الدوم؟ هذا الدوم من بلدنا، ابن عم أبي أهداه لنا». في أول عيد زارني فيه حمل لي ثلاثة عيدان من قصب السكر. قلت له إنني أحب عصير القصب، أخي أيضا يحبه، لم أقل له ذلك يومها، فلم أكن حدثته بعد عن أخي، قلت: «كثيرا ما أمر بمحل العصير في شارع سليمان وأطلب كوبا من عصير القصب»، فاجأني: «أكره عصير القصب»، «لا تحب القصب؟!» قال: «لم أقل لا أحب قصب السكر، أحبه، قلت أكره عصره!»

قبل أن يذهب سألته: هل يمكن أن أعطيك عيدية، أنت في سن بناتي؟ بدا أنه يفكر، ثم قال: لا أفضّل ذلك. وضع محمود القاعدة. التزمت بها.

لم يعد طفلا، ولا اقتصر لقاؤنا على الأعياد، نلتقي كثيرا فترفع الألفة الحواجز، نتحدث بلا حرج، نتفق و نختلف، حين نختلف نحتد ويعلو صوته وصوتي. أقول له «حل عني يا محمود، حل عن سمائي!» فيغادر وهو يتمتم بالتحية المعتادة: «تصبح على خير يا رجل يا طيب!» يعقبها انغلاق الباب رقعا كأنه سيتسبب في سقوط البناية.

دق الباب، فتحت، قال شخص لا أعرفه: «الهوانم في السيارة يسألن إن كان مناسبا أن يأتين الآن لزيارتك؟» قلت: «أعتقد أنك أخطأت العنوان»، ابتسم، قال: أعني شقيقتيك، تنتظران في السيارة. أنا السائق.»

جاءتا، استتبتا على مقعدين، واحدة عن يساري والأخرى عن يميني، سمينتان ملأت كل منهما مقعدها، اعتنيتا بتلوين الشفاة ورسم الحواجب والعيون، أولهما غطت شعرها بما يشبه العمامة، وحجبته الثانية بقبعة مقطوعة بحجم الرأس ينسدل منها منديل شفاف لفته حول الرقبة. قالتا إن عينا أصابتني. قالتا إنهما تعرفان رجلا صالحا يعالج تلك الأمور. قلت: